رسالة الى الرؤوس المتناطحة في كردستان العراق عن تجربة شوّهها... أبناؤها

جواد الحائري *

■ كنتم وأنتم تشاركون الاشتراكية الدولية مؤتمراتها حريصين على التشبه بقيادات الأحزاب العصرية والمتحضرة، تكسبون ودّ واحترام انصار حركات التحرر العالمية بكونكم تقودون واحدة من أعرقها وأنبلها.

وكنتم وأنتم تلبسون لباس التمدن عندما تذهبون الى الغرب وتقبلون يد السيدات احتراماً مثلما يفعل المهذبون من الأوروبيين، تتحدثون عن الديموقراطية والحرية مثلما يتحدث عنها اساتذتها ومعلموها وتضعون أفكاركم وعقائدكم في ساحة الأفكار والعقائد الداعية الى التحضر ونبذ التخلف والعنف والدعوة الى الحوار والسلام واللاعنصرية واللاتعصب. ملأتم الدنيا صراخاً عن مظلومية شعبكم يوم كنتم تقاتلون عن ضمير من جبل الى جبل ومن كهف الى كهف ومن عاصمة الى أخرى. توسلتم بأحرار العالم وشعوبه كي يناصروا قضية كردستان المبتلية بنار الشوفينية والفاشية معاً.

وكنا نحن، المظلومين والمقهورين والمحرومين مثلكم والمبتلين بذات الداء في قرى وقصبات ومدن جنوب العراق ووسطه، نقف معكم بقلوبنا قبل عقولنا. نسرق لحظات جريئة من ليالي الظلمة والدكتاتورية لنكتب شعاراً على هذا الجدار او ذاك ندعو فيه الى «السلم لكردستان والديموقراطية للعراق»، هذا إذا لم يكن بعضنا قد حمل سلاحه على كتفه ليصطف الى جانب مقاتليكم من رجال البيشمركة.

أشحنا بوجوهنا عنكم كي لا نصدق وأنتم تتعانقون وتشدون ايديكم على يدي جلاد بغداد يوم انتاب الشلل والخلل عقلكم وتفكيركم وقررتم الذهاب الى قصره عسى ان يتلطف ويرمي اليكم بعض ما عنده. وما كان عنده غير السكاكين التي ذبحكم وذبحنا بها وجيراننا على السواء.

ظنناها كبوة ليس إلا. وكدنا ان نصدق ذلك يوم تدافعتم لتحولوا تلك الهياكل الزائفة التي اقامتها الدكتاتورية على أرض كردستان الى قلاع قلتم انها ستكون للديموقراطية وحدها. فرحتم وفرحنا جميعاً معكم من أعماق أعماقنا وصرخنا معاً بأننا شعب لن يركع أبداً لقيم الذل والشر والعبودية والظلام.

دعونا معكم العالم كله ليأتي وليشهد ولادة فجر آخر للعراق أطل من كردستانه هذه المرة. وكانت غبطتنا نحن الذين نقف على أطراف هذه التجربة لا تقاس بغبطة وسعادة أهلنا في كردستان نفسها. خرج كل صبية كردستان وكل صباياها متلازمين يداً بيد يضربون الأرض باقدامهم ويؤدون دبكات النصر والمستقبل. وتفتحت سنابل القمح ثانية بعد ان احرقتها غازات البرابرة في بغداد، ثم تحولت سماء كردستان الى قوس قزح جميل بألوان ثياب جميلاتها وكادت أيام كردستان كلها تتحول الى نوروز. وقلنا كم عظيم هذا الشعب الذي يتمكن من ان يستحضر من تراثه روح كاوة الحداد في كل مرة يتعرض فيها الى جور حاكم.

وفتح الآخرون، كل الآخرين، أفواههم فاغرة ومتعجبة. جيرانكم من الشرق ومن الشمال ومن الغرب. اما من الجنوب فلقد اسقط في يد الدكتاتور، إذ ما الذي سيمكنه من حجب هذا الفارق الذي كدتم ان تجسدوه حقيقة وواقعاً: بين قيم الديموقراطية التي ارتفعت راياتها هناك في كردستان وقيم الدكتاتورية التي لا تزال راياتها ترتفع عالية هنا في بغداد.

اما العالم المتحضر... اما المثقفون الفرنسيون، اما مدام ميتران وآن كلويد، اما البرلمانات الأوروبية التي ناصر الكثير من أعضائها نضالات الحركة التحررية الكردية ولأكثر من نصف قرن، اما بقية أحرار العالم، فكانوا يشعرون بأن من حقهم ان يدّعوا بأن لهم سهماً في هذا المشهد الحضاري الحاصل هناك في كردستان العراق. وكادوا ان يشعروا ايضاً بأنهم قد سددوا بعض ما بذمتهم من دين يوم صمت بعضهم او كثيرهم عندما ذبحت حلبجة من الوريد الى الوريد.

ثم ماذا بعد؟ طلبتم من المناضلين العراقيين الذين يخوضون أقسى صراع يشهده القرن بين قيم الظلام والكذب والدجل والجريمة، وقيم الحرية والضياء والنور والحقيقة، طلبتم منهم ان يتجمعوا حولكم وعند بيوتكم هناك في كردستان. ثم كانت أنضج تجربة سياسية عراقية معاصرة: المؤتمر الوطني العراقي الموحد - أول اطار سياسي عراقي مشترك يقر بالفيديرالية وحق تقرير المصير. وأردناه مثلكم ان يكون مظلة العرب والأكراد معاً وكل العراقيين لبناء وطن الشراكة والمستقبل والسلام. أردناه وطناً للانسان.

لا ننكر ولا نجحد. كنتم كرماء كعادة أهلكم دائماً وكعادة كل الطيبين من أهل العراق. احتضنتم المئات بل الآلاف ممن عادوا الى أرض الوطن وفتحتم لهم قلوبكم لتعملوا معاً لوضع معالم المرحلة التالية: مد التجربة المقامة على جزء من هذا الوطن الى ربوع الوطن كله. ما كان ليتم ذلك الا بتشديد الطوق على رأس الدكتاتور من شماله وبحرق قدميه من جنوبه. ولو سارت الأمور بالشكل الذي كان قد هيئ لها لكنتم وكنا جميعاً نحتفل تحت قبة البرلمان الأكبر في بغداد اليوم.

ولكن كما يبدو ان قدر شعب العراق وقدر أهله في كردستان لا يزالان يدوران على كف اكثر من عفريت، وليس صدام حسين إلا كبيرهم. وسوس الشيطان في صدوركم. تنازعتم حول عوائد ما كتبت في وصية بأن تكون في جيب أحد منكم. تحولتم الى جباة تحملون خروجكم عند هذا المعبر او ذاك، ثم تجرأتم على ان تسرقوا حلم أطفالكم. اسقطتم أطهر تجربة تقام في هذه المنطقة وحولتم برلمان هذه التجربة الى ثكنة وانقلبتم على كل الذي شيّدتموه بأيديكم وقسمتم كردستان الى اقطاعيات سياسية ووضعتم خطوطاً وحدوداً حمراء لاقليم كان يشهد حصارين وأصبحتم انتم الحصار الثالث. وتسرّب اليكم بعض من اخلاقيات جلاديكم وبدأتم بممارسة الاضطهاد والقمع السياسي لمخالفيكم، وبدا بعض ازلامكم يمارس ذات الأساليب التي يمارسها ازلام حاكم بغداد من تعذيب وسجن ومطاردة واغتيال لمخالفي الرأي والموقف. تنابذتم وعدتم الى حلقاتكم الصغيرة والصغيرة جداً التي انطلقتم منها حيث الانتماءات الجاهلة القائمة في بعض جوانبها على التعصب والتخلف.

تخيلتم ان تلك الهالة التي صُنعت لكم جاءتكم لأسباب ذاتية مميزة فيكم، وتناسيتم ان قيم الزعامة المميزة لا تؤخذ عنوة من الناس انما يحصلون عليها لقاء ما يقدمونه لهم من عطاء حقيقي وغير وهمي.

تنازعتم الى الحدود التي اذللتم فيها انفسكم وشعبكم ووطنكم وحولتم كردستان العراق الى أرض مباحة ومستباحة يدخلها جند الترك تارة وجند الفرس تارة أخرى وغدا غلاة العرب ثانية أنى شاؤوا وكيفما شاؤوا وحيثما شاؤوا.

تغزون بعضكم بعضاً وكأنكم في عصور المغول والتتار وتهاجمون هنا قرية بأطفالها ونسائها وشيوخها لأن عنصراً من الجانب الآخر احتمى بأهلها، ثم تغتالون هناك استاذاً جامعياً لا يحمل في حقيبته غير أدوات العلم وفي رأسه غير الشيب الأبيض كأحلام السلام البيضاء، وأيضاً بحجة تعامله مع الطرف الآخر.

صغرتم من حجوم عقولكم حتى بتم تخجلون من انفسكم، وتخفّي كل واحد منكم في جحره رافضاً لقاء الآخر وكأنها مسألة خاصة به هو فيما انتم تضيعون بهذا النمط من الأداء العقيم حياة شعب كامل ومستقبلاً بأكمله.

حولتم جبال كردستان الصامدة الى رمال للانتهازية السياسية نتيجة تحالفاتكم المتقلبة في كل يوم بل في كل ساعة، وما عاد في وسع الواحد منا القدرة على متابعة سرعة تقلب اهوائكم ومواقفكم على الأرض. ابتززتم حتى حلفاءكم من قادة المعارضة العراقية والجبهة الكردستانية حتى بات الواحد منهم إذا كان له ان يبتسم لدى مقام احدكم، رأى لزاماً عليه ان يبتسم بذات القدر لدى المقام الآخر.

بكيتم وتباكيتم وانتم تحملون رفاة نعش المناضل الراحل مصطفى بارزاني، ثم ما ان انتهيتم من دفنه حتى عدتم ثانية تتنازعون حول ميراث الزعامة تماماً، كما كان يفعل «الفتوات» من قبل.

تبادلتم الاتهامات والتجريح اللاأخلاقي وهتك الاعراض بشكل أخجل كل من بقيت لديه ذرة من الحياء.

عاهدتم شعبكم وأصدقاءكم بأن لا تتحولوا الى نسخة افغانية أخرى في العراق، ثم تحولتم الى صنو اولئك الحكمتياريين والربانيين تماماً وكأنكم تصرون على ان تضاف اسماؤكم الى سلة الزعامات المنخورة.

أصبح همكم الوحيد تجميع السلاح لا لمحاربة مضطهدي شعبكم ولا لمحاربة الجيوش الناهشة في لحمكم بل لمحاربة بعضكم البعض فقط.

احرار انتم ايها السادة الذين تقفون على اعتاب طريق مقبرة كردستان الكبرى، والذين تهيئون انفسكم لرفع رايات احزابكم الصفراء والخضراء غداً عليها. واحرار انتم إذا تقلبت لديكم معالم الحقيقة واشتهيتم قراءتها مقلوبة. واحرار ايضاً ان شلكم الخدر بانتفاخات وانتصارات وهمية شرطها أن لا تعودوا الى حيث كنتم مناضلين تحملون هموم شعبكم معكم.

اما نحن الذين كنا أقرب اليكم حتى من أنفسكم فقد أصبحنا على حال بات فيه صمتنا وشهادة الزور ازاء ما يدور في كردستان موقفاً مرفوضاً أخلاقياً وانسانياً ووطنياً. مقياسنا في ذلك يعتمد على دالتين لا ثالث لهما:

الدالة الأولى: دجال وكذاب كل من يدعي اية زعامة سياسية او شعبية او طنية في كردستان العراق وهو يسهم من قريب او بعيد في ادامة واستمرار الحالة الشاذة واللاديموقراطية وحالة الاقتتال التي لا تظللها أية قيمة مبدئية سوية سوى قيمة النفعية والذاتية والغاء الآخرين ومصادرة حقهم.

والدالة الثانية: أحمق الى حدود الشراكة في الجرم كل من يمد او يدفع الآخرين لمد اليد للقاء الدكتاتور من جديد تحت أي سقف لهذا اللقاء. ذلك ان قراراً من هذا القبيل ليس غير اقرار بشرعية حالة مجنونة ومنحرفة بكل طولها وعرضها. تناضل الأغلبية المطلقة من العراقيين بأظافرها من أجل التخلص منها. وكافر من يريد ان يصادر حقهم في ذلك بدوافع انانية.

يبقى أمام اولئك الذين يتهيأون لاسقاط أقبح حلقة في تاريخ العراق السياسي ان يعتبروا جيداً من دروس التجربة الكردستانية التي شوه وجهها بكل أسف بعض ابنائها.

---

* كاتب عراقي مقيم في بريطانيا.